هل مات مسموماً

للكاتب "ليوكوزيانوف"
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

ليوكوزيانوف كاتب روسي من العهد القيصري ، تأثر بمدرسة تورجنيف وبوشكين ، وأندرييف في القصة القصيرة ، وكان صديقاً حميماً لبونين الذي حاز جائزة نوبل ، ودرس ليوكوزيانوف الرياضة والميكانيكا ، في جامعتي زوريخ وجنيف ، كما درس حياة العناصر والأوساط الثورية ، التي هاجرت أو فرت إلى خارج روسيا وجاءت إلى سويسرا وإيطاليا . ودأبه بعض الغموض اللذيذ في العقدة ، والجلاء في وصف الشخصيات وتحليل النفسيات ولا سيما النساء من أبطال قصصه . وقد نقلت هذه القصة « هل مات مسموماً ؟ » إلى الفرنسية ونالت جائزة مجلة ليزانال Les Annales ونجحت نجاحاً عظيماً

تسألني متى عرفتها ، وكيف عرفتها . تالله إن أمرك لمجيب ، فقد رويت لك هذه القصة عدد شعرات عثنونك التي لا تفتأ تنتفها من الهوس وفقد الذاكرة

لقد عرفتها يا صاحبي في صيف تلك السنة التي عرفتك في خريفها . هل في هذا التدقيق إبهام أو غموض ؟ هل كانت سعيدة في زواجها أي قبل اتصالنا ؟ من يدري ؟ ولكن من ذا الذي عرف الدنيا وخبر أخلاق رجالها ونسائها فراح بعد ذلك يشك فيما قد أصاب تلك السيدة من البلاء على يدي زوجها .. لقد وصفته لي كأنني أراه وأسمع صوته ، وقد رأيت أناساً هبطوا إلى أسفل درك الشيخوخة حاملين في أحشائهم جمرة صبابة الصبا ، وحرقة غرام الشباب . وكان ذلك الزوج منهم . ولكن لكل امرأة جميلة وصبية أن تمد مسؤوليتها من العقد ساقطة متى عجز الزوج عن حمل مسؤوليته . فإن حبها لا يبقى بعد زوال قوته ... مالي أراك تحدق فيّ كأنني أكلت ميراث أبيك أو هدمت قبة كنيسة القديسين بطرس وبولس ؟ لست حارساً على هيكل الفضيلة . وأنا أقرر الواقع . أنا لا أنكر أنه قد يحدث أحياناً خلاف ما ذكرت ، كما روى كثيرون ممن شاهدوا وجربوا . أن بيوتاً عدة لم يطفأ قط فيها سراج الحب المقدس منذ أشعل ليلة الزفاف

إيه ؟ ماذا تقول ... تهمس ولا ترفع عقيرتك . كلام معيب .. تخجل من تكراره ... ها .. ها ها .. صدقت .. تمام . أي نعم .. إن سراج الحب الذي يصب نوره على العروسين ليلة الزفاف لعرضة لألف ريح وإعصار يهبان عليه من الدخنة فيطفئانه وربما أخذته قلة الزيت ... ها ها ... الزيت . مفهوم . مفهوم طبعاً . إن المرأة ليست سيارة . قد تكون كوكباً أو نجماً مذنباً ... ولكنها ليست سيارة . فإذا ما نضب الزيت ، حينئذ ترى الزوجة بائسة يائسة تحيي الليل المظلم الطويل أرقاً بينما الزوج يغط في نومه لا يبالي ولا يكترث . نعم ؟ آه الحالة المضادة لما أقول ... دائماً المحاسن والأضداد . أنت ترى حالة الرجل المسكين قد تزوج من خداعة لا قلب لها ثم انتبه من حلم الزفاف الباطل إلى الحقيقة المرة . لقد هيأ الزوجان لنفسيهما فراشاً لا بد أن يرقدا فيه حتى يفرق بينهما الأجل ، زيجة أورثوذكسية على قواعد عقيدتنا الدينية . . .

لا، لا. المرأة التى تعرفها لم تقبل ولم تخضع. لقد سارعت إلى الفرار وهى تحمل فى أحشائها الجنين.. الذى حلت به ليلة الزفاف، ويالها من ليلة! لقد قضت عامين اثنين فقط أثناء الخطبة والزفاف. وكنت أعرفها قبل الزواج، فعرفت فيها الشباب والجمال والمرح وعدم الاكتراث للحياة... لقد كانت قبل عامين طفلة. أمُ طفل وكانت تفيض على كل من يراها من ابتسامتها كضوء الشمس، منبع الحياة والأنس. ولكن عند ما أيقنت أنها دفنت زواجها وشبابها فى قبر الشيخوخة المعتمة أسنّت فجأة كما يهرم الذين يكابدون الآلام النفسية الجسيمة فى سكينة وصمت... إنها علمت أموراً كثيرة كانت لا تخطر لها قبل على بال... فلما تملت ما تملت على يد ذلك الأستاذ الكريه (الشقاء) ثارت حميتها فنبذت كل طاعة. ولكن بعد أن كابدت مرارة النجيمة فى حياتها التى قضى عليها أن تسلك مناهجها وحدها

أى نعم! لقد عرفتها فى تلك الفترة.

وفى تلك اللحظة دخلت مدام اوجستادمانسكي، فلما علمت ان الحديث بيننا كان بشأنها تضرج وجهها من فرط السرور والخجل. وكانت فى مشيتها ونظرتها أزهى من أميرة. وعيناها بلون القطيفة، ونموهما فى شكل النرجس الفض، وكانت لخديها صفرة تخالطها حمرة وخضرة كأنهما خدا تفاحة نضرة أو زيتونة عطرة، ولها صوت لين غنى بالأنغام المؤثرة الشجية، ولفتات هادئة ونظرات عميقة. وقد فاجأت كرولنكو ذلك الفيلسوف ذا الشئون المتوف وهو يهز كتفي قائلاً: اغرس غرسك أيها الغلام واغتنم من دهرك ما ساقه اليك القدر. والله لوددت لو أرجع صبياً فأدخل الجامعة لأرشف رضاب العلم، وأشهد التمثيل خالى البال، وأهصر أغصان الصبايا خاوى الوفاض من المال. أحب الحياة التى يكون فيها جيبي وفؤادى فارغين. فلما سمع صوت حفيف حرير التافيتا الذى كانت تخب فيه أوجستا رفع رأسه وألقى عليها نظرة عجلى ثم أطرق. فخجلت كما خجل فتقدمت اليه وقالت له: عم صباحا يا ايليا ايليا نقتش. كيف حال السيدة حرمك؟ إننى لم أرها ولكن أعرفها بالشهرة الدائمة. فنهض ايليا ايليا نقتش وتناول يدها الطائلة الممتدة اليه فى عظمة امبراطورية وقبل أطراف البنان. فلم تمهله حتى يبلع ريقه ويتكلم: بل قالت وفى صوتها لهجة حزن وشيء من التهكم «حقاً إن دارنا هذه لموحشة، دار سمجة عنيفة مظلمة. نصفها خرب وسائرها ناقص الأثاث والرياش. ومن كان مثلك قد تعود محافل الأنس والحبور ومجالس السمر والفكاهة فى لندن وبرلين وفارسوفيا، لا يرتاح إلى مسامرة امرأة وطفلها وصديقها الطالب بالجامعة (تشير إلىّ) ولا يقر عينه مثل هذا المجلس وقلة أنسه. والواقع أننا لا نصلح لضيافتك. فأما إسعادك وإدخال السرور على نفسك ففى غير هذا المكان ملتمسهما ومطلبهما فانتظر عودة أمى...

فقال ايليا ايليا نقتش: لمنة الله على القيصر وجميع أسرة رومانوف يا اوجستا فيلدوفنا إن كنت أدرى أتجدين الآن أم تمزحين! فدنت منى وتناولت أناملى تعبث بهما وكان ولدها بوريس قد دنا منهما فتناولت خصلة من شعره تلاعبها باليد الأخرى. وأخذت تنقل عينيها من وجهي إلى وجه الصغير الباسم ثم وجهت الحديث إلى الرجل الناضج:

— إني أجدُ يا سيدي ايليا ايليا نفتش ، وهل هذا المقام يحتمل مزاحاً ؟ ثم صوبت نحوه نظرة عظمة وأبهة ورنت إليّ بلحظها الفاتر كأنها تناجيني فأبرقت عينا ايليا ايليا نفتش وقال مسرعاً ألفاظاً متراكة كأنها قطع من الحديد المحمي يفصلها حداد حاذق ، بدقات على السندان متتالية كرنات ناقوس القطار السريع :

— أحقاً يا أوجستا فيلوبوفنا أنك حتمت على هذا الفتى أن ينمي شعر لحيته الفضي ليبدو للناس رجلاً ناضج السن ، فلا يلفت أنظارهم اليكما بفتوته وكمال نموك ، فان الفارق في السن ملحوظ بينكما لدرجة أنك تخجلين من مصاحبته . وإن بعض الناس ليظنك أمه خصوصاً في مصلحة البريد عندما قال له موزع المكاتيب والطرود : أخبر السيدة المصون والدتك أن لها خطاباً مسجلاً ولايمكننا أن نسلمه إلا اليها يداً بيد ... أليس كذلك يا ساسا ؟

أما أنا فقد أصابني دوار ، كأنني أخوض غمار البحر في سفينة مخروقة ، ودارت بي الدنيا ورأيت ألوان قوس قزح ترسم أقواساً أمام عيني ، ثم سمعت في أذني طنين ذباب لا يني ولا يكف ، وقد فقدت توازني من هول ما سمعت من الاعتداء على كرامة سيدة وشرف رجل . إن هذا الرجل كان يكلمني في صفاء وحسن نية ، وهأنذا أراه يتهجم على عرض السيدة التي أحبتني وأحببتها ، بأفظع القول ، وأقذع السب ، وأمر القذف ...

وعند ما دخلت زنيا (خادمتها الخاصة) بطقم الشاي لم تتردد أوجستا في خدمته بأن سألته في أدب عن عدد قطع السكر التي تكفيه ليزدرد فنجانه ، وقد تمنيت أن يكون منقوع الزرنيخ النقي ، لتخمد أنفاسه . ولم يكن أقل ثباتاً منها فقال : ثلاث قطع من فضلك . كأنه لم يأكل حلواً في طفولته فهو يعوض على مائدتنا ما فقده في صباه ...

وفي خلال تلك اللحظات لم ينقص أدب السيدة ذرة ولم تقل محاسنها في عيني ، فكان وجهها لا يزال يحمل لي ألطف الابتسامات وأرق النظرات ، وإن لم تكن تلك الابتسامات من الفرح والسذاجة على مثل ما كانت عليه إذ هي تلاعب طفلها وتداعبني . وشيئاً واحداً لحظته يدل على ماطرأ من التغيير ، لقد كان صوتها عميقاً كأنه خارج من قاع بئر . ولو كان للأصوات ألوان إذاً لكان صوتها أبيض مشرباً بزرقة الفجر ، وقد دهشت حقاً من جرأة إيليا إيليانوفتش الذي عهدته وديعاً . لقد كان موقفاً حرجاً حقاً بيني وبينهما ولم ينقذه إلا وصول أمها في هذه اللحظة فيدورا كيليا نوفنا ، فقد كانت في سياحة قصيرة في نيون ، فلما وقع بصرها على إيليا إيليا نوفتش قالت له :

— ها أنت ذا أيها الشيطان الأزرق ، لا تزال على قيد الحياة ، وقد احترفت مضايقتنا في كل مكان ، أمالك عنا منصرف ؟ فاحتقن وجه الرجل وجحظت عيناه ولكنه ضبط نفسه وقال :

— أهذه هي التحية التي تدخرين لي منذ فراقنا في ايسيا نابوليانا ياأمي العجوز .

فقالت فيدورا كيليا نوفنا : لئن كنت أمك العجوز كما تزعم أيها الشيطان الأزرق إذن لثكلتك بأسرع مما فقدت أم موسى ولدها الوحيد .

فضحكت من سرعة خاطر هذه المرأة التي كنت لا أميل إليها لأنها كانت ذربة اللسان موجعة الهجاء ، وإذا كانت قد نازلت في حومة النضال كل

منافساتها من فاتنات عصرها ، فلا جرم أن تكون قد كابدت من المنازعات ما لا يحيط به حصر أو استقصاء .

فقال لها إيليا إليا نوفتش فى هدوء قاتل :

— لا عليك ياأمنا المجوز ، سواء أشكانى أم لم تشكانى ، ما دام الله قد عتق رقبة زوجك الذى كنت تجودين عليه بالضرب الوجيع لغير ما علة يدريها . وإنى ما أردت إلا إنقاذ هذا الفتى المسكين ساشا (يقصدنى ويدللنى إذ حقيقة اسمى كما لايخفى عليك الكسندر دريانوف) الذى لا يزال فى صحوة شبابه من الوقوع فى مخالب ابنتك ، لأنها حديثة السن مليحة التفاطيع فلا يخدعنه حسنها وشبابها؛ فغير عجيب أن تنمو الأشجار الكبار فى اتجاه معاطف الأعواد الرطاب — ألم يمت والدها مسموما بيد مجهولة ؟ قيل إنها يد أقرب الناس إليه ؟

فتقدمت المجوز نحو ذى العثنون وقالت له :

كذاب أشِر ، ونمام أثيم ، أتجرؤ أيها الغادر الفاسق أن تنال منى ومن ابنتى ، وقد أويناك وغذيناك ونجيناك من مخاطر لا عدد لها ؟ بعد أن التقطناك من حمأة الخمر وما إليها من الشرور والمفاسد

فابتسم إيليا إيليا نوفتش ابتسامة عريضة صفراء حتى بانت نواجذه وبدا وجهه كالذئب الذى يتحفز لالتهام فريسة لينة وهو آمن وقال :

دعى عنك ياأمى المجوز تلك السخافات وتنكبى بالله مواضع العبث والسخرية فى الحديث ، فقد انقضت دولتك وولى معها الزمن الذى كان يحيطك فيه أهل الدعابة والمزاح ، ولاتحقدى علىّ وأنا ناصح لأنك تريدين أن تلبثى إلى آخر دقيقة من عمرك وأنت تملأين النفس بأنك فاتنة الحسن خلابة الجمال مصرة على التحلى بزهرة الربيع وبهائه ، وقد أفضى بك العمر والمغامرات إلى قاب شتائه ، ومتبرجة فى حلة الشباب القشيب بعد أن جلل رأسك ثلج المشيب ، دعى عنك اليد المرتجفة الملطخة بالدماء

وفى الحق كان وجه المجوز مدهونا بالابيض والأحمر إلى حافات أجفانها ، فكان هذا الدهان يعمر عينيها بريقا وحشيا ، غريبا ، وكان على رأسها برج من المخرمات[1] وتحت هذا البرج خميلة من الغدائر السوداء المستعارة فلا بدع أن يكون هذا الوخز الأليم قد غاظها فتهرأت أحشاؤها من الحقد . لم أكن فى حياتى شهدت مثل هذا المنظر ، إذن هذه هى درامة الحياة بعينها . ولا يشهد أمثالى نوعا منها إلا على خشبة المسرح ، فلا عجب إذا بهتُّ وذعرتُ وأنا أرى وأسمع هذا النضال النادر ، فأخذت أحدق فى المجوز من فرط الدهش بعينين تقاربان فى السعة عينيها ، كما كنت أحدق فى الممثلة التى كانت تمثل فى الماضى دور الملكة الشريرة .

ثم نظرت إلى وجه أوجستا حبيبتى وكريمة تلك المرأة المخيفة ، فاذا هو ممتقع بلون الكركم الصينى وهى ترتجف من قمة رأسها إلى إخمص قدمها ، كغصن رطيب فى وسط عاصفة هوجاء .

وقد نظرت إلىّ نظرة بالغة الحزن والعتاب ، كأنها تنتظر منى أن أبطش بخصمها اللدود ، الذى

(١) نوع من الحرير المصنوع على هيأة « الدانتله » وقد بطلت هذه (المودة)

كشفت عنه المصادفة ، ولم أكن أنا الذى جلبته إلي الدار ، بل هى التى لقيته فى شارع كاردج مأوى المطاردين والمتفيين المتآمرين من الثائرين ، ودعته حنانا ولطفاً ليشرب الشاى على مائدتها .

فدنوت من أوجستا وهمست فى أذنها أسألها ما ترى واجباً على فى هذه اللحظة العصيبة . ولبث ايليا نوفتش الموتور يرنو إلى ذلك المنظر العجيب بألحاظ ماكرة رزينة . أما العجوز فقد أخذت ترفع عن رأسها تلك القبعة الضخمة التى شبهها خصمها بالبرج ، بيد مهزولة هرمة ، وكانت رواجبها المعقدة المتشنجة تأتلق بما لا يحصى من الخواتم . فانتهزت هذه الفرصة ودنوت منها وأخذت أقبل يدها بخشوع وخضوع قائلا :

— أرجو المعذرة، فالذنب ذنبي والخطيئة خطيئتى ياسيدتى ...

فأجهشت المرأة بالبكاء كالطفل ، فسارعت اليها ابنتها وحملتها إلى الباب تريد بها الخروج. ودنوت من ايليا ايليا نوفتش فبادرنى بقوله :

— أراك يا بنى مولعاً بتقبيل أيدى العجائز وإنه لأمر غير مستحسن .

فقلت له : يا سيدى . . . إننى حديث العهد بمعرفتك . ولم أكن أظن أنك تقسو على امرأة ضعيفة بهذا القدر

فقال : لم يؤن الأوان لأطلعك على حقيقة هذه المرأة بعد أنت رأيت للابنة فيك هوى وأنت أصغر منها بسنين عدة ، وكدت أراها فى موضع يقتك وكاد نجاحهما فى الاستيلاء عليك يتحقق .

فأوشكت وأنا أحرق الأرم حنقاً أن أقول له : وماذا ينفعك أو يضرك أيها الفضولى الدخيل أن تنقذني أو تتركنى أغرق ما دمت لم أستنجدك ؟ ومتى كان لمثلك أن يحشر نفسه فيما لا يعنيه من شؤون رجل رشيد ؟ ولكننى بعد أن عرفت شراسة طبعه أحببت أن أخدعه حتى أخلص من شره فقلت له :

ولِمَ ياسيدى تسلك فى ذلك سبيل القسر والاكراه ، وكان فى مقدورك أن تعالج الأمر برفق ولين ورقة، فكنت بذلك تجتذب ميلى ومحبتى، لأنني أسهل انقياداً وأطوع انسياقاً بهذه الأساليب منى بذرائع العنف والقسوة

ولم تكد كلماتى تصل إلى سمعه حتى انبسط جبينه وهدأت ثائرته وابتسم فى وجهى بنظرة ملغزة عميقة وقال لى : الحق بيدك يا الكسندر ديرباتوف ما دمت قد أدركت حقيقة مقاصدي الخيرة ، فلك علىّ أن أطيع ما تأمرنى به . فقد توصلت بقلبك الفياض بالمحبة والعطف وبفضل ما أوتيت من بشاشة وظرف إلى اكتساب ولائى وطاعتى

فدهشت من مسلك الرجل ، وخيل إلىّ لحظة قصيرة أنه قد يكون مجنوناً ، فما الذى دعا إلى سورة غضبه المفاجئة ثم انقلابه حملا وديعاً . أو قد يكون بلغ من الدهاء غايته ومنتهاه فهو يخدعنى ليستل الغضب والغيظ من نفسى كما يستل السهم من المضو الكليم. وكأنه لحظ تردد ودهشتى فقال لى: سأفضى إليك بكل شىء بعد أن نصف موقفنا ونمحو أثر ما رأيت وسمعت . فقلت: هل ترى أن تعتذر إلى هاتين

السيدتين كما يفعل النبلاء من الرجال . وإن كان فى الأمر ما يوجعك أو يشعرك بالهوان بعد موقف الجفاء والعنف الذي وقفته فافعله لأجلى وتحمل فى سبيل مودتى بعض الأذى الذى تحملته وأنا أشهد منظر التخاصم والتقاذف بالشتائم والسباب

فقال : لك علىّ ذلك ، فان كانت هذه المرأة الجحمرش الدردبيس قد أسدت إلىّ من الخير وصنعت معى من الاحسان ، فانما هو شرف تعرفى إليك فانك ممن يأسف المرء على ما مضى من عمره بدون صداقتك

فكبر الرجل فى عينى ونفيت فكرة جنونه نفياً باتاً . وصافحته ، فقال لى :

إن الحوادث التى ألمت إليها فى خصومتى مع تلك الكاهنة الشوهاء وقعت فى وقت كان القوم فيه فى موسكو وبطرسبرج قليلى الغيرة على أعراضهم حتى لقد كان أهل الشرف منهم والحسب يمدون تلوث أعراضهم بوصمة قيصرية حلية من حلى المجد والفخار . وإن هذه المرأة هى التى سودت صبى بنتها وألبست عهد طفولتها وشبابها ثوب التعاسة والشقاء. وكان زوجها لا يخرج عن كونه صفراً فى البيت لا كلمة له ولا نفوذ بل خاضعاً كل الخضوع لسلطان قرينته الطاغية ، وكان حسبه أن يزجى أيامه بين قليل من الصيد فى الحراج وقليل من الطرد وكثير من النوم وكثير من شراب الفودكا على مائدة القمار. وأخيراً زفت ابنتها تلك التى ترى إلى شيخ قد بلغ من العمر أرذله، وكاد ينقلب إلى الطفولة مرة أخرى ، وكان ساكن الريح فاتر الحركة عليه جلباب موشى بالأزهار وفوق رأسه قبعة كبيرة وهو مشتغل بمص البرتقال ، وكانت زوجته أوجستا هذه التى تبادلها الحب لاتزال تمسح له أنفه كما كانت تفعل مع طفلها؛ أما أيام الأحد فلا يزال يرتل الأدعية والصلوات من خيشومه الكبير الهرم . وقد مات الرجل بجريمة غامضة فعاد الغموض إلى نفسى من هذا الوصف الدقيق الذى دلنى على أن إيليا إيليا نوفتش جد خبير بتاريخ الأسرة من قديم . فلزمت جانب الصمت وقدته إلى حيث كانت المرأتان تجلسان وعليهما مظاهر الكآبة والألم . فلما رأتانا جفلت الصغرى وتشبثت الأم المجوز بمسندى مقعدها كأنها تكاد تغور بها الأرض وتبتلعها، فقلت: لاعليكما ياسيدتى فقد جئنا لنعتذر إليكما . وقد آلينا على نفسينا لا يغادر إيليا إيليا نوفتش هذه الدار الكريمة إلا بعد أن يصلح ما أفسد بتهوره وطيشه

فقال إيليا إيليا نوفتش :

— أى نعم ! إن العفو من شيم الكرام ، والحق ما قال ساشا الذى أتقدم به إليكما شفيعاً وكفيلا . وهأنذا ألثم يديكما وأستميحكما عذراً عما فرط منى فى حقكما . وأنت ياسيدتى الكريمة (متجها إلى تلك التى دعاها جحمرش ودردبيس منذ لحظة) أحق الناس بالمغفرة لى . وإن قصرت فى خشوعى وخضوعى بين يديك ، فلأن البطل لا يكون أبداً بطلاً فى عين سيده . وعندما نطق بهذه الكلمات التى لا أدرى كيف نمقها ومتى نسقها وفى أى قالب من قوالب الاخلاص أو النفاق أفرغها ، بدت فى عين الأم نظرة خبيثة كأنها تتفرج على مشهد من

مشاهد الألعاب . وكانت المرأة جريئة كالبؤة المصور ، كأني بها لا توجس خيفة من أحد . أما أوجستا المسكينة فقد غاصت فى مقعدها والفزع منتشر على محياها . وكانت من قبل ممتقعة اللون هادئة الصفحة . ثم إن المرأة المجوز همت بالقيام وتوهجت دباجتها وبرقت أساريرها .

فقالت لها ابنتها :

ناشدتك الله ياوالدتى أن تقبلى اعتذاره وأن تلتزمى الصمت والسكينة وألا تعرضى نفسك لمخاطر الموت بالسكتة القلبية . فابتسمت المرأة وقالت :

— نعم نعم ، كيف لا أقبل عذره وهو ربيب دارى ، وأنيس وحشتى فى شبابى وقد كابد من الشقاء فى حياة المرحوم والدك ما كابدنا .

فجلسنا وتبادلنا الحديث والفكاهة ، نصطنع السرور ونفتعل الضحك ، ونقوم بأدوار تمثيلية ماجنة بعد الفاجعة التى مرت بنا عاصفتها .

وكان الليل قد أرخى سدوله . فقالت المجوز : تتعشى معنا ياإيليا إيليا نوفتش . فقال : كان بودى أن أجيب دعوتك ، فنبعث الماضى الجميل من مرقده ولكن موعداً سابق التحديد يستحثنى إلى موافاة الرفاق فى « كاروج »

فقالت له : إذن تشاركنا الشاى والفطير عصر الأحد . سأصنع لك الكعك بيدى . وأعد لك صحناً من مربى البرتقال التى كنت به جد شغوف . أليس كذلك ؟ ولك أن تدعو من تشاء من أحبابك

فقال : طبعاً يكون ساشا حاضراً .

فقالت : هذا مالا شك فيه فانه يعيش معنا تحت سقف واحد .

قلت : يكفينى أنسكما وصحبته .

ثم نهض وانحنى وقبل أيديهما وصافحنى وحاول مداعبة الطفل فنفر منه نفوراً شديداً فضحك الرجل مدارياً خجله واستخذاءه وعجل بالانصراف .

فلما عدت وجدت الغلام (وكان اسمه بوريا تدليلا من اسمه الحقيقى بوريس) فقد عثرت عليه وحيداً كئيباً منطوياً على نفسه كأنه سلحفاة أدخلت رأسها وعنقها تحت درعها الصخرى ، فلما دنوت منه نظر إلىّ نظرة ثم عن الابتهاج والدهش بعد النجاة من الغول الذى عكر صفاءنا ، وكان شعره الذهبى يلمع فى ضوء المصباح ، وعاد محياه يتلألأ وضاءة ونضارة ، وثغره يتألق بنور الابتسام ، وعيناه تشرقان بنوع من الحنان جعل قلبى يخفق دهشاً واضطراباً .

وفى تلك اللحظة حضرت مدام بوبيه وهى خادم مجوز تؤجر بالساعة لتطهى الطعام وتعد المائدة ، دون أن تذوق من الألوان التى تتقن طبخها لقمة واحدة ، لشدة محاسبة المجوز فى كل صغيرة وكبيرة ؛ فكنت أعتذر عن العشاء أو الغداء أحياناً لأمكن الخادم المجوز (وهى فرنسية الأصل تقيم فى جنيف) من أكل الوجبة التى أتخلى عنها شفقة عليها . فاذا تحركت شفقتى وشهيتى فى وقت واحد نفحتها فرنكا تعد به طعاماً لنفسها فى غرفتها المظلمة فى حى « فوبور » فلما تركته لحظة لأبدل ثيابى استعداداً للعشاء عاد إلى صمته وحزنه وكآبته . فلما رأته أمه على تلك الحال ذاب قلبها رحمة وشفقة فأخذت بيده ووضعت يدها الجميلة الثانية على رأسه وجعلت ترنو اليه بألحاظ كلها رأفة وحنان وتخاطبه بألفاظ كلها حلاوة ورقة وعذوبة .

فلما عدت من مخدعي أخذت بيد الطفل فانصرفت الأم لتعد أزهار المائدة ، وكانت تعلم حبي الشديد للخزامى ولكنها وضعت مكانها زهر البنفسج . وأخذت أتحدث إلى الغلام وهو يسألني وأجيب وأستدرجه في لين ولطف ، لأمحو من ذهنه أثر المشاهد الأليمة التي شهد بعض أدوارها فكانت تحوم في ذاكرة الغلام عهود غامضة وذكريات مبهمة ترجع إلى زمن أقدم من ذلك العهد ، فقد كان يتذكر أنه أقام في قطر آخر وأنه رأى مدينة ذات منازل شاهقة بيضاء وأنه ركب في سفينة ، غير أن هذه الأمور كانت كالخطوط الدارسة في صحيفة ذهنه . والواقع أنه لم يلبث إلا قليلا حتى لحقت بهذه المشاهد الغامضة ذكرى مدينة « كييف » أو على الأقل ذكرى كثير مما قاساه وكابده هنالك .

فلما انقضت وجبة العشاء وراحت الخادم العجوز تتعثر في أذيال شيخوختها وفقرها وضعفها وآوت الأم إلى غرفتها وهي تجتر الشر وتضرب أخماساً لأسداس ، أقبلت عليّ أوجستا في ثوب أسود وقد رسمت تحت أجفانها حلقات زرقاء فكسر منظرها من حدة غضبي وألانني بوادر الحزن التي ظهرت على وجهها وهي تقول :

— لك أن تفعل ما تشاء إلى أن تقضيَ عليّ . إن حظي من الحياة بين يديك وأنت سيد هذه الحياة منذ عرفتك ، وبوسعك أن تعد ما يحلو لك من انتقام تجاه هذه الجهود التي يبذلها الدهر المعاند وأمثال هذا الوغد المخبول الذي جنى على سعادتنا . فما حيلتي في هذا الخائل الذي انتصب فجأة على سبيل آمالنا فتعثرت به حتى توشك أن تتبدد وأنت تعلم أنني لم أدخر وسعاً لتحقيق أمانينا

فقلت لها : أصحيح ما قاله ذلك الرجل وإن كان صحيحاً كله أو بعضه فلِمَ أوصدت سريرتك دوني ؟ وما الذي دعاك إلى كتمان أمرك ؟

فقالت : هل تشك في إخلاصي ؟

قلت : ولكن الماضي الذي لمح إليه إبليا إبليا نوفتش . فما عتم حتى ظهرت على أوجستا دلائل الشحوب فأمست صامتة تحنى دائماً رأسها . فأردت أن أشدد عزمها بتأكيدي لها أنها ستلقى السعادة وأنني سأقف حياتي على هنائها ، فلجأت إلى ذرف الدموع

وما كان قلبي وهو السادر في هواه ليخامره ريب في إخلاص أوجستا فاذا لاحت لي فكرة تستدعي لومها ردها هذا القلب متمرداً بعد أن رأى من ثباتها وولائها ما رأى . وهكذا أوجدتني تائهاً في وهاد أظلمت آفاقها وخفيت عني مخارجها

وما كانت هذه المرة الأولى التي حاول بها الناس بمثل هذه المكايد أن يفرقوا بيننا ... فجذبتها إليّ وقبلتها ، فملا وجهها الشحوب وأعرضت بعينيها عني تاركة شفتيها لشفتي ، ولم أشأ أن أسير في طريق الحب إلى أبعد من تلك القبلة ، ولم يجد النوم الى عيني سبيلاً في تلك الليلة ...

فتحرك كوتشامسكي الذي كنت أقص عليه هذه القصة وقال :

ألم تكن تعرف هذا الرجل الذي عذبك وعذب المرأتين ؟

قلت : قلت تقصد إلى إيليا إيليا نوفتش ؟

قال : طبعاً أقصد إلى هذا الشيطان

قلت : كلا

فقال كوتشامسكى : أما أنا فأعرفه فذاً من أفذاذ الخلق النادر والطبع الغريب فاسمه ملء الأسماع، وشهرته هذه لم تكن لعلو كعبه فى السياسة أو الثورة والأدب ، بل لغرابة أطواره وشذوذ عاداته فقد كان في أول أمره يتجنب الناس ما أمكنه الأمر، ويناى عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وكانت رغبته فى الانزواء ملحة قاهرة، وهو منذ وضع قدمه فى جنيف يأبى إلا أن يزورنا فى منازلنا ، ويأبى إلا أن يفدحنا بطلعته المشؤومة فى غرفنا كأنما لم يكن يكفيه طول ما ينكبنا بها أثناء اجتماعنا فى المطاعم والمقاهى لأنه كان يعتقد أن زيارة الزملاء وأبناء الوطن فى الغربة فرض لا مناص له من أدائه وواجب لا بد من القيام به

— نعم نعم لقد عرفت بعض ذلك من السيدتين قبل حدوث الفاجعة ولكن كانت الفرصة قد فرت

— الفاجعة ... أية فاجعة ؟

— الأفضل أن أتم حديثى . فقد كان بيننا وبين يوم الأحد الذى عينته الأم المجوز لدعوة الشاى ثلاثة أو أربعة أيام ففى غداة السادة والاعتذار تيقظت المجوز فيدور ا كيليانوفنا ممتعضة ، ممتقعة اللون متجهمة الأسارير . وعند ما وقع بصرها على أوجستا قالت لها كأن المسكينة كانت مسؤولة عن زيارته المشؤومة :

— ما له عندى حتى يأتى إلى منزلى ؟ قولى له بالله عليك إننى أكرهه ولا أريد أن أرى له فى بيتى وجهاً بعد اليوم

فقالت أوجستا : ولكنك دعوته إلى الشاى يوم الأحد هو ومن يحب

— من يحب ؟ أله من يحب هذا الكائن المشؤوم ؟ حسن ... بعد هذه المرة . لعلها تكون الأولى والأخيرة

أما أوجستا فلم تنم هى الأخرى . وكانت أمارات الاعياء والقلق بادية على محياها الشاحب بأجلى مظاهرها فقالت فى نفسى :

أيسعنى أن أتخلى عن أوجستا هذه الأفروديت الساحرة التى ملأت حياتى ولولاها لبقيت أيام شبابى فارغة ، لأن مأفوناً واشياً تماماً اعتدى على كرامة سيدتين لا حول لهما ولا طول ؟ وكان يجب على أن أخنقه أو أركله بقدمى وأقذف به خارج الدار

وفى اليوم الثانى كانت المجوز على أسوأ ما تكون خلقاً ومزاجاً فقالت عند ما رأتنى :

— ألا ما أردأ الناس وأخبثهم !

وراحت تحدثنى بدل ونفرعما تملكه فى مقاطعة بادولى (عاصمتها كييف) من مال منقول وعقار ، وعما تنتجه المزرعة فى (جريانيش) من خضار وبقول وحبوب وفاكهة ، وعما يحفل به بستانها الثرى من أشجار مثمرة وجنى شهى . وكل الذى حدث أن هذا الفزم الملتون الذى كان وجهه الصغير الشاحب شؤماً على رائيه أراد أن يتزوج من أوجستا . أتتصور ذلك ؟ أيمكنك أن تتخيله أو يرتسم شبحه فى وهمك ؟ وكيف يريد أن نبحث

فى أمر زواجه من ابنتنا وليس فينا جميعاً من يعتقد أن هذا القزم الجبان أهل للزواج ! وقد خيل إلينا للوهلة الأولى أن هذا المفتون هازل فيما يقول ، فاذا بنا نراه جادًّا كل الجد . على أن هذا لم يحل قط دون اعتبارنا كل قول فى هذا الصدد هراء فى هراء وكل بحث فيه من باب التندر كأكثر الأحاديث التى تتداولها الألسن

ويجب ألا أنسى أن أقول لك يا ولدي ساشا إن أوجستا استسمجت إيليا إيليانوفتش ، وكرهته للوهلة الأولى التى وقعت فيها عليه عيناها ، وكانت تأنف حتى من ذكر اسمه ، أو الجلوس معه على السفرة، وكثيراً ما كانت تقول لنا عند ما كان يذكر اسمه فى أحاديثنا عرَضاً : « أنا لا أفهم كيف تستطيعون أن تحتملوا هذا المأفون الواشى فيما بينكم باسم الصدقة أو الصداقة » وكان هذا السخيف لايفتأ يقول : « لن أبقى معكم إلا ردحاً من الزمن يسيراً وأعتزل بعده الحياة وأعيش حرًّا طليقاً بعيداً عن المداجاة والرياء والتزلف » . فكنا نقابل هذا الوعيد السعيد بعاصفة من الضحك لأنه على الرغم من أن نقض العهود والنكث بالوعود والمخالفات على شتى أنواعها ، كانت تبليه باضطراب الخاطر وانحلال القوى ، فانه لم يف قط بوعد فراقنا والتحول عن دارنا

فقلت لها : وكيف صنعتم بمشروع الزواج ؟

قالت العجوز : أى زواج ؟ آه . تذكرت . دعوناه يوما إلى حضرة والدها فقال له :

— نحن نعلم يا إيليا إيليا نوفتش أن كل شخص سيتزوج يوما ما . ولكن أمر الزواج خطير بل أشد خطورة فتأنظن، وعلينا أن نفكر فى الواجبات المقبلة وفى التبعة التى ستلقى على عاتقنا كى لا نقع فيما نحاذره ونخشاه .

وبعد بضعة أيام وفى إيليا بوعده وغادر منزلنا غير مأسوف عليه .

* * *

فى يوم الأحد الموعود تزينت العجوز وتبرجت فوق عادتها . وتبدت أوجستا فى ثوبها الزاهر الأنيق ووجها الطافح بشراً وإيناسا فاتنة أخاذة . فلم أفهم لهذا التبدل سراً .

وجاء إيليا إيليا نوفتش وأخذ ينتف عثنونه بعد أن قبل يدى السيدتين وصافحنى وداعب الطفل بوريا الذى نفر منه النفور كله وكاد يفر من وجهه لولا تودده إليه وتلطف والدته .

وإن أنس لا أنس تلك الساعة الرهيبة ، فان أوجستا التى كنت أعلم أنها تبغض الرجل وتنفر منه وتتمنى هلاكه أقبلت على إيليا إيليا نوفتش تتحدث إليه وتزين عروة ثوبه البالى بزهرة يانعة ، وكانت تارة تضحك ويداها على خاصرتها ضحكات ساحرة فاتنة وطوراً تغنى بصوت رقيق عذب ، أغانى عاطفية جميلة مسكرة — وفى تلك اللحظة أخرجت العجوز من ثنايا صدرها ورقة صغيرة وأفرغت ما فيها من مسحوق أبيض فى فنجان إيليا بسرعة البرق وتناولت قطعة من السكر وأخذت تقلب بملعقة صغيرة، ثم مدت يدها المرتجفة إلى الرجل بفنجان الشاى، فأخذ يحتسيه ويلتهم الكعك والفطير والمربى

بنهمة المفجوع بنقمة الجوع والحرمان. فعجبت للسانه كيف لزم غمده فلم ينفه بعبارة سوى امتداح الماضي وإطرائه بعد أن كان يحمل عليه بالأمس حملة نكراء.
وبعد ساعة شعر إيليا إيليا نوفتش بدوار وإعياء فاعتذر عن البقاء ورجاني أن أصحبه إلى غرفته.
فبادرت العجوز قائلة:
— لا عليك يا ولدي. إذا كنت تشعر بدوار فهلم إلى غرفتي فترقد حتى تستريح فإن فراشي كما لا يخفى عليك من أنظف الفرش. فنهض الرجل متهالكا وقد استند إلى ذراع أوجستا التي تطوعت بمعونته فتبعتهما وأنا موزع بين الذعر والغيرة فسمعت إيليا يدمدم:
— لقد اسودت الدنيا في عيني واحلولكت مرائيها، ولم أعد أسمع ولم أعد أرى، وما بلغ الغرفة المغمورة بآراد القمر وأضوائه حتى خلع ثيابه وهرع إلى السرير ورقد فيه محرور الجسم منهوك القوى.. ولم يقم منه بعد ذلك
وفي الصباح استشرت العجوز في استقدام الطبيب فألحت عليّ في الاسراع باسعافه. فدعوت طبيباً روسياً مسنا كان يقطن على مقربة من البيت فلما عدناه وجدناه نائماً وراء كلته، منطى بلحاف العجوز حتى الرأس وطرح عليه الطبيب بعض الأسئلة فلم يكن ليرد إلا بلا أو بنعم، وكانت العجوز تروح وتجيء حيال السرير مكتئبة النفس محزونة الفؤاد. فقال الطبيب: حمى وافدة، داء الموسم. لا خوف عليه! ووصف له جرعة وبرشاماً ونهاه عن الطعام
وكانت حالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وقلما اغتمضت عيناه في لياليه السود لطوارق أوهامه وصروعات أحلامه، وبعد أسبوع ذاق خلاله هذا البائس المحزون من صنوف الألم وضروب العذاب ما صهر جسده الواهي وأذاب جسمه المنهوك، وقع المقدر ونفذ المحذور وأسلم صاحبنا الروح. ومن العجب العاجب أنه لم يسأل عنه أثناء مرضه أحد.
وسرنا جميعاً وراء نعشه في موكب مهيب. وإنني في غنى عن إخبارك بأن أوجستا كانت الوحيدة التي مشت في جنازته خاشعة مطرقة بكل ما في الخشوع والاطراق من معنى، وأنها ذرفت عندما واروا جثمانه الثرى بضع قطرات من دمعها السخين.
أما العجوز فقد عادت من دفنه وعلى وجهها أمائر الحزن، لا أسى عليه، بل لأنها كانت تأبى أن تظهر على وجهها دلائل السرور. وقد سمعتها تهمس كمن يحدث نفسه: إن موت رجل مثل ايليا ايليا نوفتش مسرة لقلوب من نكبوا بطلعته المشئومة إبان حياته ...

محمد لطفي جمعة

رفائيـــل
لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة « الرسالة »
الثمن ١٢ قرشاً